

حاجتنا إلى ما يملأ عقولنا بالنور



◀ بين الفكر النظري والإيمان العملي :

في القرآن الكريم حديثٌ عن نماذجٍ من الناس، يوجدون في كلِّ زمانٍ ومكان.. وهذه النماذج عندما تدرس حاضرها أو ماضيها، فإنَّك تجد أنَّها تملك العلمَ الذي قد لا يرقى إليه علم، والمعرفة الدينية الواسعة في حلالٍ وحرامه. وإذا ما انفتح الإنسان على آفاق علمهم، فإنَّه قد يرتفع إلى أعلى ويقترب منه سبحانه، ولكنَّ مثل هؤلاء قد تأتيهم في مستقبلهم حالاتٌ صاغطةٌ صادرةٌ من غرائزهم وأطماعهم ومن الناس الذين يوسوسون، فنراهم يتركون كلَّ علمهم وراء ظهورهم، ويلتفتون إلى الشيطان، فيستمعوا إلى وسوسته، ويتحرَّكون خلف خطواته، وينقادون إليه في نداءاته، فتتحول أفكارهم من أفكارٍ رحمانية إلى أفكارٍ شيطانية، وتتبدَّل خطواتهم من خطوات في الطريق المستقيم إلى خطوات في الطريق المنحرف، وتُصبح أمانيتهم التي كانت تبحث عن رضى الله للحصول على الجنة، إلى أمانيتهم تبحث عن رضى المستكبرين طمعاً في عَرْضٍ زائل يستمتعون به في الدنيا.

هؤلاء، لم يصبح العلم عندهم حالةً إيمانية في كيانهم، وإنما كان مجرد حالة عاشت في الفكر وقتاً ما، ولكن لم تثبت وتستقر في مشاعرهم وأحاسيسهم ووجدانهم وحياتهم. حيث هناك فرقٌ بين أن يعرف الإنسان الشيء وبين أن يعيشه، وهناك فرقٌ بين أن يعرف ربَّه وبين أن يحبَّ ربَّه، وبين أن يعرف الخير، ويعيش في مشاعره معاني الخير.. وهكذا، هناك فرقٌ بين الفكر النظري وبين الإيمان العملي.

ولذا، فإننا نحتاج إلى علم يملأ عقولنا وينير الطريق أمامنا، وإلى إيمان ينطلق من إرادتنا ووجداننا ليملاً كلَّ كياننا، فيكون كلُّ واحدٍ منا، مسلماً بكلِّ وجوده وحياته وكيانه، بحيث إذا رآه الناس، رأوا الإسلام، تماماً كما نعرف عن رسول الله (ص) بأنَّه كان الكتاب الناطق، والقرآن هو الكتاب الصامت، وكذلك ما نعرفه عن عليٍّ (ع) والأئمة - عليهم السلام - من بعده، بأنَّهم الكتاب الناطق والقرآن، الكتاب الصامت. لأنَّ سيرتهم وحياتهم مثَّلت القرآن بكلِّ معانيه، ولذلك، فإن نطقوا (ع)، فكان القرآن نطق من خلالهم، وإذا تحرَّكوا، فكان القرآن تحرُّك من خلالهم.

ونعود إلى القرآن الكريم، لنستعرض واقع النموذج الذي تحدّث الله تعالى عنه، والذي لم يحوّل العلم إلى حالة إيمانية وجدانية، فخير الدنيا والآخرة. يقول سبحانه: (وَآتِلْهُم مِّنْهُم مِّنْ آيَاتِنَا أَنْبَاءَهُمْ وَأَنْبَاءَ الْوَحْيِ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الأعراف/ 175-176).

جاء في التفاسير أن شخصاً في التاريخ يدعى (بلعم بن باعوراء) أعطاه الله تعالى الاسم الأعظم، ولكنّه ترك هذا الاسم الأعظم، واتبع شهواته وأطماعه. وأيضاً كان هذا الشخص، فإنّه نموذجٌ موجودٌ في كلّ زمانٍ ومكان، وعلينا عندما نواجه هذا النموذج الذي يملك علم الدين والمعرفة بالله، ألا نستسلم له ونكتفي بذلك، لكي نُقبل عليه ونسير وراءه، بل ينبغي أن نرصد موقع علمه من حياته، وموقع معرفته بالله من وجدانه وروحه، لنستأصل، هل يجسّد علمه في عمله، وهل تنجسّد معرفته بالله في علاقته مع الناس، فيعيش على أساس محبة الله والخوف منه، أم يعيش على أساس الخوف من الشيطان والمحبة له؟ وذلك لنحتمي أنفسنا من الذين يعلمون ولا يعملون، ومن الذين يقولون ولا يفعلون، وهؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون، يملكون علم ما يقولون، ولكنهم لا يحوّلونه إلى عمل، وقد قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 2-3)، فالله تعالى يمقت الإنسان الذي تعارض قوله مع عمله، مقتاً يمثّل أكبر المقت.

ونأتي الآن إلى هذا النموذج الذي حدّثنا عن القرآن الكريم، لنتعرف من خلاله على كثير من الناس، ولنعرف ميزان الحقّ والباطل حتى نستطيع أن نحكم على الناس. (وَآتِلْهُم مِّنْهُم مِّنْ آيَاتِنَا أَنْبَاءَهُمْ وَأَنْبَاءَ الْوَحْيِ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) (الأعراف/ 175)، أعطينا آياتنا التي تدلّ على الله وتشير إلى الرسالة التي تتحرّك في ساحات التقوى، وتقود الإنسان إلى الخطّ المستقيم. آتيناه هذه الآيات، (فَوَاسَّخَ مِنْهَا) كما ينسلخ الإنسان من ثوبه، أو كما تُسلخ الشاة من جلدها، ومعنى انسلخ منها، أنّه لم يحتضنها ولم يعيشها في حياته (فَوَاسَّخَ مِنْهَا) الشيطان كالعدوِّ تماماً، فالعدو عندما يرى الإنسان الآخر مُسلّحاً وحذراً وتكون عيونه راصدة لكلِّ ما يتحرّك حوله، فإنّه لا يقترب منه، ولكن إذا غفل الإنسان عن سلاحه، واسترخى، واضعاً الحذر والانتباه والترصّد جانباً، فإنّ العدو يدخل إليه من هذه الثغرة فيتبعه لينال منه. ومن هنا، فإنّ التعبير القرآني لم يقل، فاتّبع الشيطان، بل قال: (فَوَاسَّخَ مِنْهَا) الشيطان عندما انسلخ عن آيات الله، يتبعه الشيطان ليأخذه في النهاية، تماماً كما يتبع الإنسان إنساناً آخر فيأخذه في طريق غيويه ويضله (فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقع في حضن الشيطان وشراكه، وسار في طريق الغي والضلال.

ويخلد إلى الأرض:

وعن هذا النموذج يقول سبحانه: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) فلو أراد الله تعالى أن يجعل هذا الإنسان رفيع المستوى بآياته سبحانه لرفعه، ولكنه أبى ذلك، وهذه الآيات، هي التي تدفعه لأن يرتفع بأخلاقه، لتكون له الأخلاق العليا، ولأن ترتفع بروحه، لتكون روحه في مواقع السموات، ولأن يرتفع بدرجة، لتكون درجته قريبة من الله، فأيات الله تعالى تفعل ذلك بالإنسان لو أراد استخدامها (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) استراح للأرض واستغرق في شهواتها ونزواتها وأطماعها. والإنسان عندما يستغرق في أجواء المادة والأرض، فإنّ من الصعب أن يرتفع إلى السماء، لأنّ السماء تبارك للعقل الذي يفكر في الأعالي، وللروح التي تفكر بالله والجنة. وعلى هذا، فالإنسان الذي تكون جنته بستاناً يملكه في الدنيا، وتكون طموحاته محصورة في رضى الناس عنه، كيف يمكن له أن يرتفع إلى السماء؟

وهكذا نلاحظ عمق التعبير القرآني (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) ولكنّه لم يرفع عينيه إلى السماء ليرى الآفاق الواسعة، بقي في (إِلَى الْأَرْضِ) اعتبر أن الأرض كلّ شيء ولم يرفع عينيه إلى السماء ليرى الآفاق الواسعة، بقي في الحضيض (وَآتِلْهُم مِّنْهُم مِّنْ آيَاتِنَا أَنْبَاءَهُمْ وَأَنْبَاءَ الْوَحْيِ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) انحصر حلمه وهدفه في الحياة في أن يحقق لنفسه هواها ومشتهاها، خاضعاً لانفعالاته من دون قاعدة ثابتة راسخة يقف عليها، يميل مع الريح كيفما مالت، ويظلّ مهتزّاً في كلّ جوانب حياته، بعيداً عن قاعدة الإيمان بالله تعالى، هذه القاعدة التي إذا ارتكز عليها الإنسان، فإنّ الأحوال وإن تغيّرت، والرياح وإن اشتدت، فإنّه يبقى ثابتاً عند مواقفه من دون اهتزاز.

وهذا الذي اتّبع هواه (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) عندما استحوذ عليه الشيطان ومشى في طريقه، وترك علمه ودينه، صار مثل الكلب الذي إن تحمل عليه ينبج أو تتركه ينبج، لأنّ النباح جزءٌ من طبيعته، وهكذا بعض الناس الذي يتطبّعون بالنباح، بنباح أهوائهم وشهواتهم وأحقادهم وضغائنهم هؤلاء (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَعْيُنِ قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) (البقرة/ 7)، وإنما صاروا على هذه الحال لأنهم (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (يس/ 10)، فحال هذا الذي يلهث كحال هؤلاء الذين أغلقوا قلوبهم أبوا أن ينفثوا على الهداية.

الحالات المشابهة:

ثمّ تتحدّث الآيات المباركة عن حالة الجماعة المشابهة لحالة هذا الفرد (مَثَلُ الْفَقْوَمِ الْذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) لم يكذبوا انطلاقاً من واقع جهلٍ يعيشونه، ولكنهم كذبوا بآيات الله بعد العلم بها ومعرفتها، فأخذوا من بعد ذلك إلى الأرض واتّبعوا أهواءهم وشهواتهم (فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) قصّ عليهم - يا محمد - أخبار الذين مضوا، إن كانوا في الدائرة الفردية أو في دائرة الجماعة، لا ليقضوا وقتاً من اللّهُ في استعراض القصة، ولكن لياخذوا من القصة الفكرة والعبرة. (سَاءَ مَثَلُ الْفَقْوَمِ الْذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) (الأعراف/ 177)، فأبى مَثَلٌ سيئ هو مَثَلُهُمْ عندما كذبوا بآيات الله، وظلموا أنفسهم عندما أسأوا إليها (وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) (الأعراف/ 177).

ويعطينا القرآن الخطّ الواضح في مقابل خطوط الضلال (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) (الأعراف/ 178). عندما يرى الله تعالى صدق النية عند الإنسان في الرغبة للهداية، فإنّه سبحانه يمدّه بهدايته. وهداية الله للإنسان تتمّ بتوفير سُبُل الهداية له، فتثمر في نفسه الرغبة في الهدى من خلال ما يقدره له من رغبات في هذا الهدى الذي يهتدي به (وَمَنْ يَضِلْ) الله تعالى لا يضللّ الإنسان جبراً وقهراً، بل يفتح للإنسان باب الهدى، ولكنّ هذا الإنسان يغلق هذا الباب ليتّبع هواه، وعندما يتركه تعالى لنفسه، فلا يتدخل ليمنعه بالقوة (وَمَنْ يَضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة/ 178)، وما هي النتائج التي تنتظر هؤلاء (قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ الْذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزمر/ 15).

علينا أن نعيش هذه الفكرة في عقولنا وأنفسنا فيما نعيشه من علمٍ عن الله والإسلام، فنلبسه ونعيشه ولا ننسلخ منه لنسير مع الشيطان كي يحتضننا ويغويننا. فنحاول أن نأخذ هذا المثل حتى نعمل بما عملنا، ونوجّه أنفسنا في خطّ ما عملنا، مع مراقبة الناس من حولنا، فلا نتّبع أحداً ولا نثق به لمجرّد أنّه يعلم، بل لابدّ أن ندرك ونتيقّن بأنّه ممن يعمل بعلمه ويتحرّك في خطّ الهدى من خلال علمه.

المصدر: كتاب من عرفان القرآن